Hispanidad Y Arabidad

بقلم رودولفو خيل بن امية
ترجمه ولخصه صباح محيي الدين

توطئة

في اسبانيا اليوم بعث عـــربي لا مراء فيه ، فان الجزيرة الأيبرية تحت سلطان فرانكو تجد ذاتها منقطعة او تكاد عن العالم الاوروبي الذي يسيطر عليه رجال لا يرغبون في التعاون مع العهد الفرانكي .

ولم يجد حـــكام اسبانيا — رداً على الحصار الاوروبي — مخرجاً سوى التوجه نحو آفاق اخرى يستطيعون ان يجدوا فيها متنفساً ومجالاً لنشاطهم . فكان التقرب من دول امريكا اللاتينية — والاتصـال بالدول العربية على شاطيء المتوسط . وقد شاهد العالم منذ عام او اكثر وزير الخارجية الاسبانيـــة مارتين ارتاخو يطوف البلاد العربية وغيرها متنقلاً بين سوريا ومصر والفيليبين والأرجنتين .

ولسنا في صدد الحديث السياسي فليس هذا مكانـه ، ونحن لم نتعرض له إلا كأساس لظاهرة البعث العربي التي اشرنا اليها . فقد التفت الباحثون الاسبان الى ماضيهم يستنطقونه على ضوء ميلهم الجديد الى العرب ، متجردين عن الاحقاد المتوارثة منذ زمن فرديناند وايزابيلا ، فتكشفت لهم آفاق جديدة من العلاقات بين الفاتحين العرب واهل الجزيرة الاسبانية .

ويدعونا الصدق الى القول بأن علماء اسبانيا ومستشرقيها لم ينتظروا حـــكم فرانكو ليبحثوا في تاريخ الاندلس باخلاص وتجرد . فان امثال ريبيرا Ribera وغونثالس بالنثيا Gonzalez Palencia ومننذز بيدال Menendez Pidal وآسين بلاثيـوس Asin Palacios وغيرهم القوا اضواء كاشفة عـــلى الأثر العظيم الذي خلفته آداب العرب وفلسفتهم وموسيقاهم لا في اسبانيـا فحسب ، بل في اوربا بكاملهـــا من فرنسا الى ايطاليا وحتى انكلترا والمانيا .

ومن بين التآليف التي توضـح جذور الاخوّة بين العرب والاسبان كتاب صـدر مؤخراً بعنوان « اسبانيا والعروبة » Hispanidad Y Arabidad .

ومؤلف هـــذا الكتاب هو « رودولفو خيل بن امية » Rodolfo Gil Benumeya وليد غرناطة وسليـل الامويين فيها ، وقد شاهد النور عام ١٩٠١ ودرس الفلسفة والأدب في جامعة مدريد ودرّس اللغة الاسبانيـــة في القاهرة والجزائر ، وشغل منصب استاذ الفن العربي وتاريخ مراكش في مركـز الدراسات المراكشية في تطوان . وهو الآن يعمل في معهـد الدراسات السياسية ويشارك في معهد الثقافة الاسبانية ومعهـد الدراسات الافريقية التابع للمجلس الاعلى للابحاث العلمية .

وقد نشر المؤلف عدة دراسات عن اسبانيا والبلاد العربية ومن بين تآليفه « تاريخ السياسة العربية » و « استعراض للعالم العربي » و « لاشرق ولاغرب » و « مراكش الاندلسية » الخ ..

ويبدأ الكاتب دراستـــه عن « اسبانيا والعروبة » بعرض لتشابك الاصول الاسبانية العربية منذ فجر التاريخ ، ثم باثبات لتعايش المسلمين والمسيحيين في ظل الخلافة القرطبية .

ثم يتطرق الى الثقافة الاندلسية التي استقت من نبعي العرب والاسبان ويدرس تأثيرها على الأدب الاوربي متابعاً في ذلك نظريات العلماء الذين ذكرنا آنفاً .

ويخلص بعد ذلك الى موضوع العرب وابنـــاء العرب في امريكا اللاتينية مبيناً انهم نزلوا بين اهلهم حـــين هاجروا الى امريكا .

وهدف الكتاب سياسي اكثر مما هو ادبي ، وهو يرمي الى بعث التعاون بين العرب والاسبان في كل ميدان ، من البحر المتوسط حتى امريكا والفيليبين .

وقد اخترنا لقراء « الآداب » الفصل الاول من هذا المؤلف وهو يكشف النقـاب عن قِدَم العنصر العربي في اسبانيا وفي المدنية العالمية . ولا يدفعنا الى ذلك كبرياء قومية او شعـور

بالعظمة - فكلاهما لا صلة له بالعلم الحق — بل حافزنا الاول محاولة لتجريد ابناء الشرق العربي من شعور النقص الذي يساورهم امام الغرب وتفوقه الظاهر .

فان الغوص على الاصول يعيد لنا الشعور بكرامتنا وبنشاطنا في كثير من الميادين ، وهو امر يأخذ بمجامع النفس ويكشف للباحث — مثلاً — ان ابن قزمان واترابه الاندلسيين سبقوا الغرب بقرون في ميدان الشعر وكانوا المعين الذي نهل منه شعراء « التروفير والتروبادور » ، وان مقامات الهمذاني والحريري هي — دون شك — الاساس للقصة الاوربية التي تولدت من القصص الاسباني المعروف باسم Picaresco وان ابن النفيس سبق الانكليزي هارفي Harvey بمئات السنين في اكتشاف الدورة الدموية ، وغير ذلك كثير .

وليست الرغبة من هذا كله الفرح بسبق في اي ميدان لا سيما في ميدان العلم والأدب حيث تعمل الانسانية كتفاً الى كتف ، بل بث الايمان في النفوس المتشككة المستضعفة. فان هذا القسم من العالم — واعني الشرق العربي بأوسع صفاته — اسهم بقسط كبير في المدنية الانسانية ، وليس ما يمنعه من ان يعود الى احتلال مكانه في عداد الجمهرة الخلاّقة المبدعة .

من المقدمة

يحكي دون ميفيل دي ثيرفانيتس Cervantés ، في أحد ابواب القسم الثاني من كتابه « دون كيخوتي » كيف عاد سانشو بانثا من جزيرته الضائعة فالتقى بصديقه القديم الفلاح العربي « ريكوتي » الذي عرض عليه ان يقاسمه كنزاً مخفياً .

وهذا هو اليوم شأن اسبانيا التي اضاعت منذ ١٨٩٨ آخر ممتلكاتها في المحيطين الاطلسي والهادي. فانها التقت فجأة بصديق — او بالأحرى بقريب قديم — اعني العرب والمستعربين في مراكش فعرضوا عليها ان تقتسم وإياهم كنزاً مخبأ من زمن بعيد **هو كنز العروبة التي كانت امبراطورية اسبانيا الاسلامية المسيحية في قرطبة من ألمع مناراتها .**

العروبة كعامل داخلي اسباني

برهنت آخر الابحاث التاريخية عن اصول اسبانيا في العصور القديمة والوسطى على ان العناصر البشرية الآتية من الشواطيء الشرقية للبحر المتوسط، من البلاد السورية وما جاورها كآسيا الوسطى وجزيرة العرب كانت احد الاصول الاساسية التي نتج عنها المركّب الاسباني في الجزيرة الايبرية .

ولوقت يسير مضى كانت هناك فكرة خاطئة تقول بأن هذه العناصر — على وضوحها — لم يكن لها الا تأثير خارجي ، اي انها لم تمتزج ولم تذب في صميم الجزيرة اذ انها كانت ثمرة غزوة اجنبية . ومنشأ هذه الفكرة الاعتقاد بان العروبة الاسبانية لم ترَ النور الا مع الفتح الاسلامي الذي بدأ بين ٧١٠ و ٧١٣ ، وانتهى بسقوط غرناطة في ١٤٩٢ ، اي ان هذا الاعتقاد يوحّد بين العروبة وبين نشوء الدول الاسلامية في الجزيرة الاسبانية ووجودها فيها .

ولكن الواقع غير ذلك ، فان شعوب الشاطيء الشرقي للبحر المتوسط ، وليدة الجزيرة العربية ، كانت قد خلقت قبل ظهور الاسلام بعصور طويلة نوّيات سياسية ، عرقية وثقافية ذات صفات عربية لا تقبل الجدل ، وان كانت تلك النويات داخلة في المدار الاغريقي او الروماني. وفي هذا ما يبرهن على ان العروبة لم تبدأ مع محمد والاسلام، بل ان الاسلام خلع على العروبة اشعاعها الأوسع وان اكثر التأثيرات الواصلة من الشاطيء الشرقي الى الجزيرة الاسبانية — من ايام الهجرات الاولى — كانت عربية وان لم تكن تحمل هذا الاسم حينذاك .

ولا شك في ان العنصر البشري البدائي في الجزيرة الاسبانية، المتمثل في الايبريين ، والبشكنس وغيرهم من العناصر الضاربة في منطقة جبال البرانس ، كان دوماً يفوق العنصر الشرقي المتوسطي في العدد وسعة المجال . فقد ظل هذا العنصر الأخير لاصقاً بالساحل والاراضي المتاخمة له مما منعه ، حينذاك ، من ان ينشب جذوره في الارض بقوة كما فعل السلتيون مثلاً وقد جاءوا اسبانيا متأخرين ولكنهم سرعان ما امتزجوا بالبلاد اذ اقاموا على الارض كفلاّحين قرويين في حين كان اكثر الشرقيين ملاحين وتجاراً .

ومهما يكن من امر ، فقد حسّن الشرقيون مركزهم شيئاً فشيئاً اذ ان هجرتهم استمرت — على الرغم من بطئها — منذ احد عشر قرناً قبل المسيح حتى ذهاب الامبراطورية الرومانية، فضلاً عن انهم استفادوا من تفوقهم في الثقافة والتنظيم ، فكانوا خميرة استطاعت — على قلتها — ان تنفخ روحها وقواها في

المجموعة الايبرية .

وقد اتى الأغريق والرومان والقوط بخميرات اخرى ، الا انها لم تأت الا بعد الخميرة الشرقية التي سبقتها في التأثير ، **وفي هذا ما يفسر ان الاسلام الآتي من الشرق لم يجد صعوبة في تمثل العناصر الرومانية والقوطية ، ومزجها في مركّبٍ نهائي ذي شكل سوري ومادة اسبانية .**

ولذا فانه ليس من الصواب في شيء ان يقال ان العرب والعروبة شيء وصل اسبانية فجأة في وقت ما من القرون الوسطى وانتشر بسرعة الفيضان ، وكمثل الفيضان ، تراجع بعد ذلك شيئاً فشيئاً مخلفاً — هنا وهناك — مناطق مشبعة بفيضه . بل الامر بالعكس اذ قد تم بين النبتة العربية والارض الاسبانية امر فذ لم يكن لا عربياً صرفاً ولا اسبانيا بحتاً ، على الرغم من انه ضم مميزات العنصرين . فقد ظل الحافز والمحفوز ، الفاعل والمنفعل ، الشرقي والمحلي ، ثمرة خاصة بالارض التي نشآ عليها وامتزجا فيها ، كعاملين نشيطين في صميم الكون الاسباني .

أ — اسبانيا واصولها السورية اللبنانية

شهد التاريخ بين ٢٣٠٠ و ٢٧٠٠ قبل المسيح ، اي في عهد السلالات الفرعونية الأولى قيام علاقات تجارية ودينية بين مملكة النيل وبين مدينة جبيل التي يقال انها اقدم مدينة في العالم. ويبدو ان جبيل شاهدت النور حوالى الالف الرابع قبل المسيح ، بعيد هجرة واسعة وصلت من الجزيرة العربية الى لبنان الفينيقيين . ويبدو ان اسم هؤلاء الذين عُرفوا بالبون Puni آت عن ارض البنط Tierra de Punt ، ارض الذهب والبخور التي لا تُميّز ، بسبب هذه المنتجات ، عن جنوب الجزيرة العربية او ما يعرف بالعربية السعيدة Arabia Felix . وبعد قرون عدة من ذلك ، اصر بعض المؤلفين من الاغريق مثل هيرودوت على ان اصول الفينيقيين من شواطيء البحر الاحمر ، ولكن المؤرخ اسطرابون — في عهد الامبراطورية الرومانية — يشير الى ان بعض المدن القائمة على ما يسمى الآن بالخليج الفارسي كانت ما تزال تحمل اسماء فينيقية مثل : صور واربد .

ومهما يكن من امر ، فان كل الدلائل تجمع على ان الفينيقيين كانوا — أول الامر — شعباً ساحلياً عربياً ولكنهم تبدلوا على الزمن بسبب مقامهم على الشاطيء اللبناني حيث تلقوا مختلف التأثيرات من الشعوب المجاورة ومن نشاطهم البحري .

وثمة اسباب تدعو الى الاعتقاد بان فينيقي جبيل، مذ بدأوا نشاطهم هذا ، وصلوا حتى الشواطيء الجنوبية للجزيرة الاسبانية حيث عثر في كثير من المغاور على ادوات تشابه في مادتها وهيئاتها الادوات المستعملة حينذاك في مصر والجزيرة العربية وما بين النهرين . وقد تكون هذه الأوائل ثمرة التصدير الفينيقي البدائي ، وإن لم يكن في المستطاع القطع برأي في هذا الموضوع .

اما اولى الدلائل التاريخية القاطعة عن الفينيقيين في اسبانيا فهي تعود الى سنوات ١١٠٠ — ١٠٠٠ قبل المسيح حيث انطلق من صور — العاصمة الفينيقية الجديدة — مؤسسو قادش التي كانت اول الامر مركزاً تجارياً لا غير . ثم استطاع الصوريون بعد عدة قرون (حوالى سنة ٨٠٠ تقريباً) ان يحتلوا الجنوب الاسباني بكامله .

ومرت قرون ستة (حتى سنة ٢١٠ قبل المسيح) كانت شاهداً على تمكن الدولة الفينيقية في جنوب اسبانيا التي انشأت المدن العديدة مثل غدير (قادش) ، وملكه (ملقّا) وعذره (ابديرا) ومدينة صيدا (مدينا سيدونيا) ، فضلاً عن قيام مدن فينيقية على اطلال بعض المدن القديمة مثل اسباليس (اشبيلية) وكوردوبا (قرطبة) .

وخلفت هذه الدويلة الفينيقية التي ظلت على صلة دائمة مع صور ، دولة فينيقية اخرى هي قرطاجة التي انشئت عام ٨١٤ في افريقيا الشمالية . فقد احتل القرطاجيون قادش عام ٢٠٦ ثم اجتاحوا ثلثي الجزيرة الاسبانية بين ٢٣٨ و ٢٢١ . وعلى الرغم من ان هذا الفتح امتد حتى مشارف نهر الايبر الاعلى ، فانه ظل معتمداً على قواعد الصوريين ذاتها حيث مكن القرطاجيون حكمهم في مدن جديدة مثل قرطاجنة (قرية حدشت) واليكارت والثغور البحرية الامامية في جزر الباليار .

وتمتاز هذه الفترة القرطاجية بالنشاط الذي تجلى في الجنوب والجنوب الشرقي من اسبانيا معتمداً على القواعد الصورية ، وباحترام مناطق النفوذ الايبري في قلب الجزيرة . وقد وقعت بعض الاصطدامات بين القرطاجيين والايبريين ولكن الحرب

بين الفريقين لم تدم طويلًا ، واصبح الايبريون تابعين اوفياء للقائدالقرطاجي هانيبال فشكلوا النواة الرئيسية في الجيش الذي افتتح المستعمرة الاغريقيـــة في ساغونتو Sagunto ومكن هانيبال من انتصاراته في ايطاليا [1] .

وبعد ان تغلبت رومـــا على قرطاجة ، اضطرت الى شن حرب عنيدة ضـد سكان الداخل والجنوب من اسبانيا طوال قرنين كاملين ، خسر فيها الرومانيون خيرة قوادهم وجنودهم. وفي هـــذا دليل – وان كان غير مباشر – على الأثر العميق الذي خلفه القواد القرطاجيون بين سكان البلاد الايبرية .

هذا ولم يزل تأثـــير العامل البشري السوري اللبناني من الوجود في اسبانيا اثناء الحـكم الروماني ، بل ظل حياً رغم استعمال اللغة اللاتينية ونزول بعض النبلاء الرومان في البلاد مثل القائد كلوديو مارسيلو الذي اقام في مدينة قرطبة . ومن بين الاسباب التي سهلت بقاء هذا التأثير نجد الاستقلال المحلي الذي منح لقادش التي كان يدير امورها حاكم من اصل فينيقي. ومن بين الشواهد البارزة على النهج الشرقي الغالب على مدنية الجنوب الاسباني خلال هذه الفترة ، نجد النجاح الذي لاقتـه راقصات قادش اللواتي اطلق عليهن الرومان اسم Puellæ Gaditanae ،اي فتيات غدير ،وقداشتهرن برقصاتهن بالصناجات ، التي كانت تشبه رقصات النساء في مصر وسوريا الى حدجعل الشاعر مارسيال يمزج بينهن في منظوماته . ويضاف الى ذلك تعلـق السكان في منطقتي بيتيكا [2] وقرطاجنة بآلهـــة ميثولوجية ذات اصول فينيقية – عربية لاجدال فيها مثل سلامبو – وهي احد اشكال عشتروت – التي عبـــدت في اسباليس (اشبيلية) ، ودوساريس اله النبيذ او باخوس سوريا ، واللات الهة الصحراء التي كانت تسمى باثينا [3] الجزيرة العربية ، واهم من هذه كلهـا « ملكرت » المرقل الفينيقي القرطاجي الذي كان يعبـــد في هيكل كبير في قادش .

هذا وان نزول المسيحية في اسبانيا لم يتمثل بتنصير البلاد فحسب ، بل رافقه وصول عناصر شرقية جديدة ، اذ يبدو ان عدداً كبيراً من المبشرين الذين صحبوا الحواري يوحنا جاءوا من اقليم دمشق الذي كان حينذاك قطعة من المملكة العربية النبطية التابعة لروما . وعلى اثر ذلك اخذت الكنيسة الاسبانية تنظم ذاتها معتمدة على كرسي قرطاجة التي كان سكانها – حسب قول القديس اغسطينوس – لا يتكلمون اللاتينية بل الفينيقية. وقد كان اسقف قرطبه اوسيو Osio من ابرز وجوه المسيحية فاصبح مستشاراً للامبراطور قسطنطين واحد محرري فعـل الايمان Credo ورمزاً للعقيدة المسيحية. وقدخلع عليه معاصروه اسم « المصري الاسباني » اشارة الى اصوله الشرقية .

ومن الوقائع الهامة خلال الحكم الروماني ثم التسلط القوطي الذي تبعه انضمام قسم كبير مما سمي بعد ذلك بمراكش الى اسبانيا كمقاطعة تابعة لاقليم اشبيلية. فقد تمكنت بذلك العلاقات التي ما فتئت ناشطة بين الجنوب الاسباني ومركز الفينيقية في قرطاجة ، خاصة وان حدود مراكش الجنوبية كانت تحميها – منذ عهد الامبراطور ادريانوس الاشبيلي – جنود من الصحراء السورية اتى بهم الرومان من ضفاف الأردن ومن تدمر ، وهم بدوٌ عرب من اصل نقي.

واثناء الفترة القوطية ظلت الصـــلات مستمرة بين العرب واسبانيا إذ تسلط التجار السوريون واللبنانيون على كل الاسواق في اوروبا الجنوبية التي زعزعتها غارات البرابرة. واشتهر هؤلاء التجار في مرافيء البحر المتوسط واطلق عليه اسم Syri وملكوا المراكز التجارية في ايطاليا وفرنسا واسبانيا وافريقيا الشمالية. ويبدو أن نواة هامة من هؤلاء السوريين وصلت اسبانيـا حين عمدت جيوش روما الشرقية ، في عهد جوستينيانوس وزوجته السورية اللبنانية تيودورا ، الى احتلال كل الجنوب الشرقي بين بلنسية وقرطبة ، واحتفظت به حتى سنة ٦٢١ حـين اكتسح القوط تلك المناطق .

وقد تم هذا الاحتلال الروماني بمساعدة السكان الاسبان المحليين ، في حين ان باقي الجنوب الاسباني الذي كان منذ البدء في حوزة القوط امضى أكثر الوقت في ثورات متتابعة عـــلى حكامه حتى اصبحت تلك المناطق ابواب الاحتلال والفتح دخل منها العرب المسلمون اسبانيا بمساعدة قسم كبير من السكان .

ب – العنصر الاسباني الروماني في سوريا والجزيرة العربية

إذا نظرنا الآن الى الدولة العربية الاسلاميـة في دمشق ، التي اصبحت اسبانيا اقليماً بعيداً منها بعـد معركة وادي بكة Guadi Bakka ، امكننا الاثبات – بشواهد كثيرة – ان

---

(١) كان جيش هانيبال حين وصوله الى ايطاليا يتألف من ١٢,٠٠٠ من المشاة الافريقيين ، و٨,٠٠٠ اسباني و ٦,٠٠٠ من الخيالة البربر .

(٢) الاقليم الواقع على نهر الوادي الكبير .

(٣) الهة الحكمة الاغريقية وتقابلها مينرفا لدى الرومان .

مؤسسيها الامويين حاولوا في انشائها ان يتبعوا مناهج الدولة البيزنطية التي لم تكن قد غيرت شيئاً يذكر في سوريا والبلاد المجاورة لها من الانظمة التي فرضتها الامبراطورية الرومانية على مناطق الشرق والشرق الأوسط .

وأهم ما في هذا النظام الروماني الذي امتد من الشاطيء الفينيقي حتى قلب الصحراء السورية انه جاء نتيجة لجهد عكسي لما قام به أقوام فينيقيا وسوريا والجزيرة العربية في الجنوب والشرق من اسبانيا . ذلك ان تراجان وأدريان، الامبراطورين الرومانيين اللذين ولدا قرب اسباليس (اشبيلية) هما اللذان جمعا بين سوريا – التي لم تكن تضم حينذاك سوى الشاطيء الذي يغلب عليه اللبنانيون – وبين الأقاليم الداخلية من بلد الشام إلى الأردن والبادية . وفي هذا المشروع كان البادىء « تراجان » وتبعه في ذلك « ادريان » . وقد ضم الأول الى الامبراطورية الرومانية مملكة العرب النبطيين في البتراء ودمشق ، وكانت تمتد من الفرات الاعلى الى شاطىء البحر الاحمر القريب من منطقة مكة والمدينة . وقد نتج عن ذلك ان هؤلاء العرب أصبحوا النواة الرئيسية للجيش الذي اعتمدته الامبراطورية الرومانية لمناهضة الامبراطورية الفارسية على الفرات . وكانت هذه النواة تتألف من فرسان عرب تتعاون مع كراديس من المشاة كانت حينذاك اسبانية في اكثرها. **وهكذا كرر « تراجان » الاسباني الروماني في الشرق مع القبائل العربية ما فعله هانيبال الاسباني الفينيقي مع القبائل الاسبانية قبل ذلك بقرون .**

اما « ادريان » فقد نظم المقاطعتين – سوريا والجزيرة العربية – في كتلة واحدة ، وادخل في الاولى لبنان وانطاكية وفلسطين ، وفي الثانية المناطق الواقعة بين دمشق والفرات والاردن والبحر الاحمر وصحراء الجزيرة العربية . وكانت تقوم الى جانب ذلك دويلة عربية اخرى مركزها تدمر .

وكان القسم الاكبر من هاتين المقاطعتين من اصول فينيقية سورية وسورية عربية على الرغم من ان اكثرهم كانوا يتمتعون بالمواطنية اللاتينية . وكانت دمشق المركز والرأس والعاصمة الطبيعية للمقاطعتين الموحدتين اقتصادياً وثقافياً . اما من الوجهة السياسية فان النظام الروماني كان يعتمد على ادارة من الموظفين السوريين الدمشقيين من طرف ، وعلى قوة من جنود الحدود اكثرها من العرب الاقحاح ، يقيمون في معسكرات ثابتة مع عائلاتهم او في سلسلة من القلاع المحصنة على حدود فارس.

وحين جاءت المسيحية قام الاقليم العربي بدور هام في نشر الدين الجديد بعد ان اعتنقه بسرعة واصبح اساقفتها خير اعوان للاسقف القرطبي اوسيو Osio اثناء انعقاد مجمع نيسيا .

واستمر نظام الادارة الرومية قائماً اثناء الفترة البيزنطية ، وحين قامت الخلافة الأموية في دمشق عمدت الى الاحتفاظ بانظمة تراجان وادريان وخلفائها بعد ان ادخلت عليها من التحوير ما يلائم واقع الدولة الاسلامية . وهكذا عادت دمشق – كما كانت في زمن الرومان – رأس الدولة وعاد الموظفون السوريون الى تنظيم ادارة الخلافة ، كما عادت القوة الحربية الرئيسية تتمثل في المعسكرات الدائمة يسكنها المحاربون العرب في البادية مع عائلاتهم . اما القلاع التي بناها تراجان فقد هيأها الخلفاء الامويون لتصبح قصوراً لهم كقصر رغدان وقصر الحير وقصر المشتى ، الخ ..

ولم تكن مسيحية بعض السوريين العرب عائقاً في سبيلهم اذ انهم كانوا يتمتعون بكل الحقوق حتى انهم توصلوا الى مراكز المستشارين والوزراء ، كما حدث ليوحنا الدمشقي احد مشاهير آباء الكنيسة الذي كان صديقاً حميماً لأحد الخلفاء .

ج – الاستمرار في الدولة الاسبانية العربية

وحين سقطت خلافة دمشق ، قامت محلها خلافة بغداد حيث تغلبت التقاليد الفارسية والهندية الى حد ما على التقاليد السورية العربية المتوسطية . وقد انتقلت هذه التقاليد برمتها الى اسبانيا بعد ان جعل عبد الرحمن الاول من قرطبة عاصمة لأمارة اسبانية مستقلة . وكانت الدولة الاسبانية التي انشأها عبد الرحمن مجمعاً للتقاليد الدمشقية المستوردة وللتقاليد المحلية الخاصة بالجنوب والجنوب الشرقي من اسبانيا ، وهي تشابهها الاولى الى حد كبير .

هذا وقد امتازت الدولة القرطبية بمظاهر ثلاثة قامت في وقت واحد : مظهر « السورية » الدافعة المحركة ، ومظهر « الاندلسية » الذي خلع على الدولة شكلها ، ومظهر الأساس الاسباني الغالب على كل ما سواه .

وكان المظهر الأول بيّناً – اوضح ما يكون في رغبة الخلفاء في اقامة إدارة عمادها العناصر المحلية التي تضم العدد الكبير من المسيحيين ، وإنشاء مناطق حربية تقيم فيها القوات العربية مع عائلاتها (وهكذا نزل الدمشقيون في غرناطة

والاردنيون في ملقا واهل قنسرين في خاين واهل مصر في مرسية) ، وفي الميل الى اشكال الحياة البيزنطية التي تجلت في تبادل السفراء والصناع وفي الصبغة السورية البيزنطية الغالبة على ما شيدوه من ابنية ، وفي « بروتوكول البلاط » الخ ..

اما المظهر الثاني فقد اختلط – في كثير من تفاصيله – مع المظهر الاول . اذ ان ما اتى به السوريون انما نهض على آثار سورية ولبنانية سابقة في الجزيرة الاسبانية . ومثلاً على ذلك فان مسجد قرطبة يتكشف في مخططه عن عناصر سورية كتلك التي استخدمها البيزنطيون لبناء الصهاريج ذات العمد في القسطنطينية في حين ان التفاصيل البنائية الاساسية تحمل طابع اقنية المياه المعروفة باسم Acuedecto De Los Milagros في مريدا. وكذلك القوس الحافرية التي وصلت الى غايتها من الجمال في ابنية قرطبة وصلت الجزيرة في شكل بدائي من آسيا الوسطى ثم دخلت الهندسة الاسبانية الرومانية واصبحت عنصراً اساسياً في الابنية الاسبانية القوطية ولكنها ظلت متواضعة الشكل حتى حولتها الهندسة القرطبية الى عَلَمٍ من الابداع .

اما المظهر الثالث – مظهر تغلب العنصر الاسباني – فقد نتج عنه ان الامارة ثم الخلافة القرطبية نشأت في بلدٍ لم يكن ذا قومية معينة بل كان يضم مجموعة من العروق والقبائل والمدن الحرة ودويلة فينيقية قامت في الجنوب قبل مجيء روما . ولم يتغير الامر تحت حكم روما فقد اصبحت اسبانيا مجموعة من الاقاليم التابعة للامبراطورية ، وحين تسلط القوط على البلاد انقسم السكان الى طبقتين : طبقة القوط الحاكمين وطبقة الاسبان المحكومين .

وقد ظهر العرب في اسبانيا عَرَضاً ، كأعوان لعصابة من القوط في نضالها ضد عصابة اخرى ولكنهم اقاموا فيها نهائياً والفضل في ذلك لمساعدة الاسبان المستورمين في الجنوب ، اذ ان العرب أتوا بنظام اجتماعي يحرر الاسبان من القوط ويساويهم بزعماء العرب وقادتهم ذاتهم . وقد تمثلت الدولة القرطبية قسماً من النبلاء القوط الذين ظلوا على دينهم وعينوا في مراكز هامة ، وكثيراً من القوط الذين اعتنقوا الاسلام .

ويمكن القول ان الامراء الامويين القرطبيين كانوا اول ملوك اسبانيا ، لأن دولتهم حاولت ان يمتد سلطانها الى حدود الجزيرة الاسبانية ، ولأنها لم تقم على طغيان بعض القبائل او الطبقات الاجتماعية او المجموعات الدينية (على الرغم من ان الاسلام كان الدين الرسمي في الدولة) ، بل كانت تحاول فعلاً صهر كل الاعراق والفئات الاجتماعية لتخلق منها نموذجاً عاماً للفرد الاسباني في اطار قومية اسبانية وحيدة.

د – الاسبانيون داخل الخرقة

وقد سهّل محاولة التوحيد هذه منذ بدء استقرار العرب المسلمين في اسبانيا ان الكثير من السكان كانوا قد اصبحوا عبيداً ارقاء للنبلاء القوط ، وكفاهم ان ينطقوا بالكلمات التي تشكل عقيدة الاسلام كي يصبحوا – قانوناً – مساوين لحكامهم العرب ويستطيعوا في كثير من الأحوال ان يملكوا الأراضي التي كانوا يزرعونها . اضف الى ذلك ان العناصر الحرّة من الاسبان المستورمين الذين ظل اكثرهم على المسيحية وجدوا انهم يحتفظون بحقوقهم كطوائف محمية تحت ادارة رؤسائهم الروحيين . اما العبيد الذين اسلموا فقد كانت كثرتهم عاملاً آخر في تمكين ما اتى به الاسلام العربي في الجنوب والجنوب الشرقي حيث كانت كثرة السكان تشعر بالفوائد الاقتصادية والاجتماعية التي جلبها النظام الجديد .

ويمكن القول بصورة عامة ان التغيير الاجتماعي لم يأت بتغيير في الاعراق أو السكان ، إذ أن الأهلين وإن تبدلت احوالهم وأسماؤهم ظلوا على ما كانوا عليه اذ لم تشهد الجزيرة افناء مجموعة معينة من السكان أو هجرة إجماعية .

وعلى الرغم من أن عدد المسيحيين ظل كثيراً فان المولدين والاسبانيين المسلمين كانوا يشكلون النواة الأكثر عدداً في السكان ، وخاصة في جنوب نهر التاج ، في حين ان العرب الشرقيين والبربر الآتين من مراكش – وأكثرهم من المحاربين العازبين – تزوجوا من الاسبانيات ومزجوا دماءهم بدماء أبناء الأندلس . وبصورة عامة كان الزواج المختلط منتشراً بين كل العناصر البشرية في الاندلس، وامتد ذلك إلى التزاوج بين الخلفاء وصغار الملوك المسيحيين في جبال الشمال. **وهكذا مثلاً تزوجت حفيدة قومص جبال البرانس بالامير القرطبي عبد الله، وقد اصبحا فيما بعد جدي الخليفة عبد الرحمن الثالث . وكذلك المنصور بن عامر ، ديكتاتور قرطبة الشهير تزوج ابنة شانسو الثاني ملك نافارا ، بينما تزوج الفونسو السادس ابنة احد ملوك الطوائف في اشبيلية .**

هذا وقد استخدم الجهاز الحكومي والتنظيمات الادارية في الخلافة الأندلسية كثيراً من العناصر الاسبانية مسيحية ومسلمة،

وقد بلغ هذا الاستخدام شأوه في عهد عبدالرحمن الثالث ، إذ غلب الاسبانيون على غيرهم في الادارات والدواوين وفي داخل القصر بين الخدم الذين كانوا من الصقالبة (وهم عبيد من شمال اسبانيا أو من ايطاليا والبلقان) في حين كان اكثر حرس الخلفاء من سكان غاليسيا وكاتالونيا الذين كانوا تحت قيادة القومص رئيس المسيحيين في قرطبة وذلك منذ عهد الخليفة الحكم الاول وقد استخدم كذلك عدد من المسلمين ذوي الأصول الاسبانية الرومية في عهود مختلفة كقضاة وعمال في الاقاليم وكتاب للخلفاء وحراس للترسانات الخ ..

ولكن أهم عامل — وأدعاه الى الدهشة — في الادارة الاندلسية كان العامل الحربي دون شك . فالى جانب حرس الخلفاء المسيحي الذي بلغ في بعض الأحيان ٥٠٠٠ جندي ، كان يوجد جيش رسمي دائم من المرتزقة يستخدم للدفاع عن الحدود، وكان هذا الجيش يتألف في البدء من البربر الآتين من مراكش ومن جنوب المغرب ، ولكنه اصبح منذ عهد المنصور يضم اكثرية من الجنود ذوي الاصول الاسبانية، مسيحيين ومولدين.

وفي هذا ما يفسر ان حروب حكام الاندلس ضد ممالك الشمال لم تكن في الواقع حروباً دينية ، اذ انها — حتى ذلك الزحف الشهير الذي قام به المنصور ضد مدينة سانتياغو Santiago في غاليسيا — كانت ذات هدف سياسي بحت .

وقد استمر الأمر كذلك حتى بعد ذلك بعصور ، اذ تأثر ملوك الموحدين الذين كان بلاطهم في مراكش بعادات الاندلس فأقاموا حولهم حرساً مسيحياً، وتبعهم في ذلك سلاطين مراكش حتى اواخر القرن التاسع عشر . ونجد مقابل ذلك في الممالك المسيحية بعض كبار القادة يعملون في خدمة الملوك المسلمين المحليين كما جرى للسيد Cid مع ملك سرقسطة وللقائد القرطبي غونزالو فرناندز الذي ساعد عبد الله ملك غرناطة في حربه مع الزغل . ولا شك في ان اغرب مثال على هذه الظاهرة معركة نافاس دي طولوزا Navas de Tolosa التي ثبت فيها ان القوات الاسلامية المنكوبة كانت تضم في صفوفها جيوشاً مسيحية.

واذا انصرفنا عن هذه الظواهر الحربية الى الوقائع الدينية وجدنا ان وضع المسيحيين تحت حكم الدولة القرطبية خير مثال على نجاح حركة التوحيد المشار اليها آنفاً . **فان ما نعرفه الآن عن حياة المسيحيين في ذلك العهد يمحو الخرافات القائلة بان تأسيس الدولة الاسبانية العربية تجسم في النضال بين عقيدتين كما انه لم يكن ثورة النضال بين شعبين** . بل الواقع ان المسيحيين والمسلمين كانوا يعيشون مختلطين ممتزجين في مختلف الممالك والدويلات ، مهما كان دين ملوكها . ونحن نشير الى الدولة الأموية الاسبانية بشكل خاص لأنها كانت اهم الدول بسبب اصولها ، وطول بقائها وامتدادها وشمولها . ونجد ان المسيحين كانوا يتمتعون في تلك الدولة بحرية العبادة بما في ذلك الشعائر الخارجية في بعض الاحيان كقرع النواقيس، ويعيشون في طوائف ريفية او مدنية يحكمها — اداريا — موظفون خاصون بها منهم الحكام المحليون وجباة الضرائب وقضاة للشؤون الداخلية . وكان هؤلاء الموظفون لا يطبقون القوانين العربية بل القوانين القوطية كما وردت في Liber Judicum .

اما عن الطبقات الاكليركية ، فان الامارة ثم الخلافة القرطبية كانت تضم ثلاثة كراسي مطرانية في طليطلة واشبيلية وماردة ، وثمانية عشر كرسياً اسقفياً في الاراضي التابعة رسمياً للدولة الاسلامية. وكان في استطاعة رؤساء الاساقفة والاساقفة ان يعقدوا مجامع يتشاورون فيها. ولم يكن بعض الاساقفة ورؤساء الاساقفة يتعاونون مع الخلفاء فحسب بل كانوا يتمتعون بثقتهم ويحلون — في بعض الاحيان — ضيوف شرف على قصور قرطبة كما حدث في عهد عبد الرحمن الثالث لاسقف غرناطة « الربيع بن زيد » او في عهد الحكم الثاني لمطران طليطلة « عبيد الله بن قاسم » ولاسقف قرطبة « ابن عبد الله بن نبيل».

ولم يكن سلطان رؤساء الأساقفة والأساقفة يشمل الأكليروس النظامي فحسب بل يمتد على عدد من الاديرة التابعة لنظام القديس بنيديكتوس . وكان بعض هذه الاديرة متاخماً للقصور الملكية الى حد ان احد ملوك بني امية الذي كان يشكو الأرق شفاه سماع قرع النواقيس في الصباح الباكر .

ومختصر القول ان القرون التسعة التي انقضت بين عام ٧١٠ وعام ١٦١٠ شهدت في اسبانيا شعباً يعيش فيه جنباً الى جنب قسم من السكان يدينون بالاسلام وتغلب عليهم المدنية العربية وقسم آخر من المسيحيين الذين تغلب عليهم المدنية اللاتينية المحدثة . وقد نتج عن هذا الواقع تسعة قرون من التركيب والانصهار والتبادل المستمر بين مختلف العناصر في مجال الحياة اليومية ، بدت آثارها في النماذج البشرية الجديدة ، وفي المنظمات والتعابير العاطفية والموسيقى والألبسة والمجوهرات والأبنية والفنون التزيينية والأساليب الزراعية الخ ..

على الحدود

الليل والهمسات والصمت المبيد
على الحدود
والطفل يصرخ بانفعال
« اماه .. اين ديارنا ؟؟ »
مستفهماً
« اماه .. اين ديارنا
اين التي حدثتِ عن سهراتها
والورد
و « البرقوق » في هضباتها
هل هذه اماه .. هذي ارضنا .. ؟ ! »
والوحشة السوداء .. والام الحزينة في اكتئاب
تبكي وتجهل ما المصير
فتخفف الخوف المرير
في آهةٍ مكبوتة
« اسكت حبيبي .. لا تزد
لا ترجع الماضي السعيد
لا تبعث الاحلام والآهات
لا تذكر الوطن الفقيد .. »
ـ اماه .. هل سنعود ؟ ! يوماً
« لا تزد ! »
والام تنصت باكتئاب
والليل .. والشهداء .. والدم والحديد ! !
والحقد .. والثأر المبيد
يرددون
على الحدود
غداً نعود !!!

سمير صنبر

هذا والواقع ان العنصر الاسلامي كان يهيمن هيمنة تامة حتى عام ١٠٣١ ، ثم برزت الى الوجود المشاركة الفعلية بين العنصرين الاسلامي والمسيحي واستمرت من ١٠٣١ الى ١٤٩٢ وبين ١٤٩٢ و ١٦١٣ داب العنصر الاسلامي في الوسط المسيحي وسار في طريق الانحلال . ولم تخل هذه الانتقالات بين مرحلة الى اخرى من ازمات دامية . ولكن الدم المراق لم يكن نتيجة احقاد جماعية ، وان بعض الوقائع مثل اغتيال رؤساء المسيحيين العرب في قرطبة عام ٨٥٩ وخيانة العهد المكتوب لغرناطة عام ١٤٩٩ لم تكن إلا ظواهر فردية لا تعمد فيها .

ومهما يكن من امر فان هذا التيار المستمر الذي اتى الى اسبانيا بعرب الجزيرة وبالمراكشيين (وهم مزيج عربي ايبري ـ كما رأينا ـ شبيه بالمزيج الاسباني ومختلف عنه في آن واحد) ، وبالتأثيرات الجديدة الصادرة من الشرق الاوسط ، من بغداد والقاهرة واستانبول ، قد عمل عمله في اسبانيا المسيحية التي كانت فيما بعد اساساً للدولتين الاسبانية والبرتغالية .

وبما لا شك فيه ان الاسلام كان احدى المواد الاساسية في بناء اسبانيا المسيحية ، فان التطعيم جعل الاسلام والعروبة يتغلغلان في لحم اسبانيا باجمعها ودمها ، حتى انه ليس في المستطاع القول ـ دون خطأ ـ ان مسجد قرطبة ومأذنة اشبيلية وحمراء غرناطة هي آثار خلفها في اسبانيا فاتحون غرباء ، اذ ان سليلي اولئك الذين بنوها ما زالوا يعيشون في اسبانيا ويشكلون قسماً من العوامل الاسبانية ولذا فان مجد هذه الآثار هو ملك هذه السلالات ـ اكثر من ملك ابناء الشرق الاوسط الحديث . **وهذا يعني ان العروبة حين تمثلتها اسبانيا جعلت من اسبانيا شيئاً عربياً الى حد ما ، وان اسبانيا اذ حملت التراث في احشائها جعلته اسبانياً الى حد كبير .**

(باريس) ترجمة : **صباح محي الدين**